الرسالة الخامسة

الإيجابية في حياة الداعية

بقلم

الدكتور/ عادل الشويخ

obeikandl.com

* الداعية الإيجابى .....
مسلم ذو قبضة حديدية.
* يقول: ينبغى أن يكون هذا....
بعزمٍ.. وحزمٍ.. وإرادة لامعة...
فيكونً بإذن الله...
* إذا قال:.... فَعَل....
وإذا نوى:..... اقتحم....
* وله ميراثٌ من يحيى عليه السلام لما قيل له:
﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ ﴾ {سورة مريم:١٢}
* وهو كتاب الإيمان عنده....
وسطر الحضارة..
وحرف التمدن...
بغلاف العلم..
* فيأخذ صُعُداً فى طريق الإبداع.
ويبتكر..
ويبادر...
* ويكون إبداعُه كثير التنوع، لا يحدّه إطار، وإنما هو واسع... سعة الزمان والمكان...
* ويضيف الطارف الجديد... إلى الشامخ التليد...

الإيجابية فى حياة الداعية

لقد قادت المناهج التربوية ـ فى بعض المجموعات الدعوية ـ ومن خلال الممارسة المستمرة، وحسن الأداء، والمراقبة، إلى تثبيت وترسيخ بعض المفاهيم التربوية بشكل جيد، ولعل أحد أكثر هذه المفاهيم شيوعاً واستقراراً وتفهماً مفهوم الطاعة فى المنشط والمكره، وأدى ترسخ هذا المعنى إلى وحدة الصف، ودفع بعض آثار الفتن، وتفويت الفرص أمام الحركات الضرارية، كما أدى الالتزام به إلى إتقان تنفيذ متطلبات الحركة، وضمان استمرار حركتها، رغم أن الحاجة لا تزال مستمرة لتوضيح هذا المعنى، والتأكيد عليه من خلال الكتابات الدعوية، ومن خلال المراجعة الدائمة لما كتب فيه.

ولكن لابد فى الوقت نفسه، من مناقشة مسألة قد تترافق مع هذا المفهوم الجيد والواضح، إذ إن بعض الممارسات الخاطئة والمبالغة فى فهم الطاعة بمفهومها الضيق، دون أن تترافق بمفهوم (السمع) الذى يعنى التفهم والإدراك والوعى، والذى غالباً ما يرد فى النصوص الشرعية مع الطاعة، قد أدى إلى ظهور سلبية كبيرة ألا وهى اعتماد الدعاة فى عملهم وتنفيذاتهم اعتماداً كليًّا على الخطط وأن تكون جميع أعمالهم مرهونة بما يصدر إليهم من توجيه، دون الاعتماد على أنفسهم فى إيجاد منافذ العمل، أو اتخاذ زمام المبادرة إلى الحركة والعطاء، وإنما اتخاذ الموقف الانسحابى وانتظار تنفيذ الأوامر فحسب.

إن هذه السلبية فى الدعاة تحتاج إلى مناقشة ودراسة، لأنها أصبحت تشكل عائقاً فى طريق العمل، وأحد أسباب الفتور الواضحة، ولا يمكن أن يقتصر تعليلها على رواسب التربية الخاطئة بمفهوم الطاعة المجردة، رغم أن من المؤكد أن بعض الممارسات التربوية لها أثر فى حصول هذه السلبية، إضافة إلى تأثير مجموعة أخرى من العوامل، لعل منها ضعف القابليات الفطرية، والمناهج التربوية المدرسية القاصرة فى مدارس العالم الإسلامى التى لا تساعد على تفجير الطاقات الإبداعية، مع عدم توفر الدوافع النفسية والمادية، وجنوح الفرد ـ فى المجتمعات الشرقية ـ إلى الانزواء والكسل، وغير ذلك من العوامل التى تشكل بمجموعها أثراً نفسيًّا بالغاً فى تكوُّن النفس السلبية.

●●●●●

obeikandl.com

مفاهيم خاطئة

ولا يخفى كذلك عامل إدراك المربين لمفهوم (التقوى) بطريقة خاطئة، ليست على منهج السلف، فالإيماء الذى تتركه بعض كتب التصوف، وارتباط فكرة الخمول والانسحابية بالتقوى، أو تصور ارتباط الورع بمقدار الابتعاد عن مظاهر الشهرة، أو التأثر ببدعة الإرجاء، قد انعكس بعض ذلك على بعض الدعاة بشكل بيِّن فى سلوكهم، حتى جاء مفهوم الطاعة ليركز هذا المعنى، فيؤدى إلى اعتماد الدعاة اعتماداً كليًّا على مربيهم فى تنفيذ الواجبات الدعوية أو فى قضايا التخطيط، وبالتالى تقلصت الجهود الفردية إلى أقصى حد، أو كادت تتلاشى القدرات الإبداعية فى الدعاة، فصار لزاماً بحث هذا الأمر كظاهرة دعوية، وإيجاد الحلول لها، وقد يزداد نمو الظاهرة، كما تزداد خطورة المسألة مع مرور الزمن، وخصوصاً عند غياب العناصر القديمة، وتوسع العمل، والحاجة إلى أنماط جديدة من النشاط تحتاج إلى مزيد من العناصر الحية المبدعة، وكذلك فإن توسيع قاعدة الجماعة، وتغير ظروف العمل، وامتداد الصحوة الإسلامية، وتباين أنماط التحرك، كلها تقود ـ بالضرورة ـ إلى أهمية الاعتناء بتربية الجانب الإيمانى فى نفس الداعية، وتنمية روح الإبداع الخاص، واستلهام زمام المبادرة إلى الأعمال المثمرة دون انتظار الأوامر والركون إلى الدعة اعتماداً على الخطط وحدها.

فردية التكليف

إن أول دوافع الإيجابية التى يجب أن يتذكرها الداعية هو أن مناط التكليف فردى، وأن كل فرد سيحاسب يوم القيامة فرداً، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وإن كان المرء يحاسب عن عمله فى الجماعة، وبعض التكاليف لا تتم إلا بجماعة، أو من خلال تجمع جماعى، ولكن الحساب بالثواب والعقاب لا يكون إلا فرديًّا، ومن الإيمان بهذا المنطلق يجب أن ينحصر تفكير الداعية فيما يجلب له الأجر، ويقربه إلى الطاعة، دون أن يكون تبعاً، وأن يمتلك زمام المبادرة إلى الطاعات دون الالتفات إلى عمل فلان أو قول فلان، ولا يجب أن تقعده نشوة الطاعة، ولا تثبطه أثقال المعصية، ولا ينتظر الإذن بالعمل من شخص ما، إلا ما كان جزءاً من خُطة، بل يفكر الداعية بنفسه أنه سيحاسب يوم القيامة عن أعماله، وعمّا قدّم، ولا يسأل عن الآخرين، كما أن عليه أن لا يرنو ببصره إلى غيره، فقد يكون لهم من الأعذار ما

يمنعهم عن شيء ما، أو ليس لهم من الهمة والطاقة ما يمكنهم من أداء عمل ما، ويستطيع هو أداءه، فلا يثبطه الشيطان،أو تقعد به ثقلة الحياة الدنيا،والداعية ـ بنفس الوقت ـ عليه أن ينصِّب رسول الله ﷺ قدوة عملية أمام عينيه، ولا يجعل الأشخاص الآخرين ـ أيًّا كانوا ـ مثالاً له، فقد يفتح الله عليه من الهمة أكثر من الآخرين، أو يوفقه الله ـ تعالى ـ إلى عمل يتفرد به، أو إلى فضل يؤثره فيه، فلله فى خلقه شئون، وهو المتفضل على عباده، وقد يختص برحمته من يشاء وكيفما يشاء.

لا تكلف إلا نفسك

لقد توارد معنى الإيجابية، وتكرر فى القرآن الكريم بصور شتى وأساليب متنوعة، ليتركز مفهوم فردية التكليف، وبالتالى ذاتية العمل، وما ينعكس عن ذلك من تثبيت مفهوم الداعية فى العمل والمثابرة، ومنها أوضح آية فى كتاب الله ـ تعالى ـ تحدد معنى الإيجابية، ألا وهى قوله تعالى:

﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ (١).

والمعنى واضح فى أمر الله تعالى لنبيه فى عدم تكليف أحد إلا نفسه، وأن لا ينتظر إعانة من أحد، رغم أن المعلوم من الشريعة أن الأمة كلها مكلفة بالجهاد، ولكن المعنى أن يفترض كل مسلم من الأمة ـ والقدوة فى ذلك نبيها ﷺ أنه وحده المكلف بالأداء، وأن الله قادر على نصره، وينحصر واجبه فى تحريض المؤمنين.

(**كأنَّ هذا المعنى**: لا تدع جهاد العدو، والاستنصار عليهم للمستضعفين من المؤمنين، ولو وحدك، لأنه وعده بالنصر...

قال الزجّاج: أَمَر اللهُ تعالى رسوله ﷺ بالجهاد، وإن قاتل وحده، لأنه قد ضمن له النصرة.

وقال ابن عطية: هذا ظاهر اللفظ، إلا أنه لم يجىء فى خبر قط، أن القتال فرض عليه دون الأمة مدة ما، فالمعنى ـ والله أعلم ـ أنه خطاب له فى اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد فى خاصة نفسه، أى أنت يا محمد وكل واحد من أمتك القول له:

﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ (٢)، ولهذا ينبغى لكل

(١، ٢) سورة النساء: ٨٤.

مؤمن أن يجاهد ولو وحده، ومن ذلك قول النبى ﷺ :

«والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتى».

وقول أبى بكر ـ وقت الردة ـ: «ولو خالفتنى يمينى لجاهدتها بشمالى. . .» [١].

فلينظر ـ بتأمل ـ لاستنباط القرطبى (رحمه الله) أن يجاهد المسلم ـ ولو وحده ـ اقتداءً برسول الله ﷺ، وما أدركه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ للإيجابية من خلال النصوص.

موقف من هدهد

ولعل كذلك إحدى الصور البليغة التى يستشهد بها من القرآن الكريم قصة الهدهد مع نبى الله سليمان عليه السلام، إذ يبرز مفهوم الإيجابية واضحاً. . إذ كيف سار الهدهد بمفرده دون تكليف مسبق، أو تنفيذ لأمر صادر، وجَلَبَ خبراً للقيادة المؤمنة أدى إلى دخول أُمة كاملة فى الإسلام، وبالطبع فإن تَفَقُّد الأمير للأتباع، وأخذه الأمر بالحزم، ثم المحاسبة، وتبين العذر. . كل ذلك من أسس الإدارة، وقواعد التخطيط، ومناهج التربية، وقد وصف القرآن الكريم عمل هذا الهدهد بقوله:

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [٢].

وبالطبع، فلا يعنى الاستدلال الحرص على التسيب، وإنما المقصود الأخذ بمعنى الإيجابية الهادفة بضوابطها، دون الخروج على أهداف الجماعة ووسائلها، أو مبادئها العامة، أو أن تكون على حساب الأوامر والأعمال الراجحة، وما إلى ذلك مما هو معلوم، بل وإن نفس القصة لتدل على ذلك حيث سمة اليقظة والدقة فى العمل وتفقد الأفراد والحرص عليهم، وضرورة الطاعة والمحاسبة عليها، ثم الحزم القيادى وعدم التسيب فى معالجة الأمور، ثم الإصغاء للأتباع ومعالجة المواقف، وغير ذلك مما هو ليس مجال الاستدلال له، ولكن الاستدلال لطبيعة الهدهد صاحب الذكاء والوعى والإدراك والإيمان، حيث استغل فرصة ما ليبلغ خبراً مهمًّا، حرصاً منه على تبليغ الرسالة، وطمعاً فى نشر التوحيد، مع براعة فى حسن الأداء، وجودة العرض، وشجاعة الاعتذار.

---

(١) تفسير القرطبى ٥ / ٣٩٣ .

(٢) سورة النمل : ٢٢، ٢٣ .

وما اختيار القصة إلا للاستدلال بها، كى يؤخذ من ثناياها ثلاثة أمور يستنبط بالأدنى منها على الأعلى:

* فالداعية أولى من الهدهد بالعمل الإيجابى، والسعى وراء المصالح، والبحث عن الخير، فما من أفضلية خاصة لهذا الطائر الاعتيادى، إذا تجاوزنا الإسرائيليات أو المبالغات التى لا تسندها النصوص، والمؤمن الداعية أدعى أن يقوم بالعمل المثمر، دون انتظار أوامر أو تعليمات من الأمير.

* والنظر إلى قيادات العمل الإسلامى فى عدم توقعها القيام بكل الخطط، وتوجيه جميع الأوامر أولى، فهذا نبى الله المؤيد بالوحى من جهة، وسُخرت له الجن والطير، لم يكن قادراً على الإحاطة بجميع الأمور، ولم يكن ملمًّا بجميع المعلومات، فاحتاج إلى معلومة صغيرة، من طائر صغير، فكانت إيجابية التابع عوناً لعمل الأمير.

* وكذلك يستدل بالعمل الصغير ـ كنبأ ومشاهدة قوم يعبدون الشمس من دون الله ـ للاهتمام بما هو أكبر من ذلك، وقد تقوم إيجابية الداعية بجلب منافع أكبر من الأخبار، وأهم من الشواهد.

وهكذا يستدل على التابع والمتبوع ونوع العمل من قصة الهدهد لاستلهام ما ينبغى أن يكون عليه الواقع الدعوى؛ من إيجابية الدعاة، وعدم الاعتماد ـ فى كل أمر ـ على الأمراء، مع تنوع الأعمال، وعدم استصغار ما دقَّ منها.

القاعد المغبون

وعلى المسلم الكسول أن يتذكر دوماً أنه مغبون ما دام فى صحة وعافية وعنده رزقه، وأن لايفوت شيئاً من أوقاته، أو يضيع عمره سدى، لأن كلاًّ من صحته وفراغه رأس ماله فى الحياة الدنيا، وعليه أن ينفقهما ـ فى سبيل الله ـ طلباً لربح الآخرة، وإلا فاته الوقت، وأدركه المرض المانع، أو الهَمّ القاطع، وترك الإيجابية فى العلم، أو زمام المبادرة، وهو منتهى الكسل، وتمام الفتور، والسلبية ـ فى أحسن حالاتها ـ اكتفاء برأس المال فقط.. وفى أول كتاب الرقائق من صحيح البخارى عن ابن عباس قوله ﷺ:

«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ».

دليل على أن احتفاظ الداعية والمؤمن عموماً بصحة وفراغ دون عمل غبن كبير، وسلبية مفرطة..

قال ابن بطال: معنى الحديث أن المرء لايكون فارغاً حتى يكون مكفيًّا صحيح البدن، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يُغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شُكره امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فمن فرط فى ذلك فهو المغبون، وأشار بقوله: «كثير من الناس» إلى أن الذى يُوفَّق لذلك قليل....

وقال ابن الجوزى: قد يكون الإنسان صحيحاً، ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التى يظهر ربحها فى الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته فى طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها فى معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم...

وقال الطيبى: ضرب النبى ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذى له رأس مال، فهو يبتغى الربح مع سلامة رأس المال، فطريقه فى ذلك أن يتحرى فيمن يعامله، ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن، ومجاهدة النفس وعدو الدين، ليربح خيرى الدنيا والآخرة، وقريب منه قول الله تعالى: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ ﴾[1] الآيات، وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس، ومعاملة الشيطان، لئلا يضيع رأس ماله مع الربح[2].

إيجابية الجيل الربانى

ومن خلال تربية المصطفى ﷺ الصحابة، صار كل صحابى أمة لوحده، وما من صحابى إلا وله سمة معينة، وموقف خاص، وإبداع متميز، فمنهم من أشار واقترح ومنهم من أوضح وشرح، ومنهم من أضاف واستدرك، فيما يخدم الدعوة وحركة الإيمان، فسلمان الفارسى يستفيد من خلفيته الحضارية ويقترح حفر الخندق، وحباب بن المنذر يقترح الوقوف فى بدر على الماء، وآخر ينصب المجانيق فى غزوة الطائف، وأبو بَصير يخطط لحرب عصابات بعيداً عن بنود صلح الحديبية، وعمر بن الخطاب يقرب سيفه

(١) سورة الصف: ١٠.
(٢) فتح البارى ١١ / ٢٣٠.

فى نفس الهدنة من أبى جندل طمعاً فى أن يستله ويقتل أباه دون مؤاخذة على نقض المعاهدة، ويستلم خالد بن الوليد الراية ـ يوم مؤتة ـ بلا تأمير، رضي الله عنهم أجمعين.

والمتتبع لمعارك القادسية واليرموك، والجسر والبويب، يجد لكل صحابى فيها موقفاً مشهوداً.

وللصحابة والتابعين بطولات وجولات، نستل منها فقط قصة ذلك المجهول فى القادسية صاحب الإبداع عند ملاقاة الفرس حيث نفرت خيل المسلمين من الفيلة...

(فعمد رجل منهم فصنع فيلاً من طين، وأنّس به فرسه، حتى ألفه، فلما أصبح: لم ينفر فرسُه من الفيل، فحمل على الفيل الذى كان يقدمها، فقيل له: إنه قاتلك. قال: لا ضير أن أُقتل، ويُفتح للمسلمين) (١).

ولو ترك الجانب العسكرى، لرأينا فى الجانب الاقتصادى ذلك الصحابى الذى تؤرقه كثرة أبناء المهاجرين والأنصار فينقل زراعة القمح للحجاز، وعبد الرحمن بن عوف يختبر السوق، فيصفق لنفسه حتى لا يكون عيالاً على غيره، وكل ذلك كان يتم دون أوامر، بل بمبادرات من الصحابة أنفسهم، رغم الإيمان التام بكفاية القائد المؤيد بالوحى، ورغم الاستعداد التام للطاعة المطلقة، وذلك لإيمانهم الجازم بضرورة العمل الإيجابى.

وكذلك فى إطار الفكر والتربية يسارع عبد الله بن عمرو لتدوين الحديث، وزيد بن ثابت لجمع القرآن، إضافة إلى مسارعته لتعلم العبرانية والسريانية إذ قال عن نفسه:

(....قال لى رسول الله ﷺ: «**أتحسن السريانية**»؟ قلت: لا. قال: «**فتعلمها**»، فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً) (٢).

وابن عباس يجد بُغيته الدعوية فى الخروج للأسواق والسلام على الناس، وصحابية تطالب الرسول ﷺ بحق النساء فتجمعهن للسماع، وتنقل أسماء بنت عميس بعض تجارب أهل الحبشة فى كفن المرأة.. وغير ذلك.

وفى الإطار الاجتماعى، يسابق بعضهم بعضاً فى التزاور والضيافة ويتحاور أبو الدرداء مع سلمان ليُبَتّ الرسول ﷺ فى أمر المناقشة حول حقوق العيال وقيام الليل.

---

(١) تفسير القرطبى ٢ / ٣٦٤ .

(٢) إسناده صحيح ، أخرجه أحمد ٥ / ١٨٢، والحاكم ٣/ ٤٢٢.

وللجدد.... مواقف

وفى تاريخ من أسلم من النصارى عبر التاريخ، قصص وعبر، ومبادرات إيجابية، وقصص الأندلس طافحة بهذه الأمثلة، وقبلها ما حصل عند الروم، وبينها مبادرات فى إفريقية، أو فى فتوحات العثمانيين فى أوربا، كقصة البطل الألمانى ـ صانع المدافع ـ الذى استشهد فى معارك جزيرة رودس، وكل هؤلاء الأبطال لهم سلف فى عمل النجاشى ـ رحمه الله ـ الذى أسلم، وظل فى قومه.

ويكتفى هنا بقصة الأمير القاضى أبو محمد عبيد الله بن صليعة الذى قرر مع رعيته النصارى، أن يخدع الفرنج ويظهر أمامهم بمظهر الخائن، ووعدهم أن يعينهم إن هم تسللوا إلى برج سماه لهم، فكان من قائد الفرنج أن انتدب من شجعانهم ثلاثمائة، فطالعهم النصارى فى حبال، وكلما طلع واحد قتله ابن صليعه،حتى أباد الثلاثمائة.. ثم حاصروه ودكوا برجه، فأصبح وقد بناه فى الليل) [(١)].

فانظر إلى العزيمة فى الأداء، والإيجابية فى العمل، دون النظر لما يقول الآخرون، أو حبًّا لشهرة يراها المسلمون، وللقصة تفصيل ـ لا مجال له هنا ـ كما أنها غيض من فيض، ولكن يكتفى بالقليل اعتباراً بها، ودفعاً للدعاة للبحث والنظر.

سر الحضارة الإنسانية

والمتتبع للحضارة الإنسانية، يجد الإبداع الفردى، والإيجابية الذاتية هما منبع الأفكار المتميزة، وبداية الآفاق الحضارية، فمنذ فجر التاريخ كانت الاختراعات والابتكارات فردية، ابتداءً من صناعة العجلة، وحتى الطباعة والتلغراف، والمصباح، وأشباه ذلك حتى أدى هذا الانعكاس إلى ظهور الفلسفات التى تؤكد على الذاتية، وليس هذا المبحث بصدد تقييم هذه الفلسفات ومدى بعدها أو قربها من النظرة الإسلامية، وإنما للاستدلال على ما ساد فى الحضارة الإنسانية من رصد صحيح للإبداع والابتكار، وحتى عند تحول الأعمال إلى منطلقات جماعية كما يحصل فى البحوث السياسية والإدارية والاقتصادية، بل حتى فى بحوث العلوم الطبيعية الحالية، من نزعة جماعية، فيظل للفرد دوره المميز فى ومضة الإبداع، وفى إيجابية الأداء، والفكر الإسلامى له نظرة متوازنة بين العمل الفردى والعمل الجماعى، ويرفض التفرد والأنانية، كما يرفض الغرور والشخصانية، إلا أن تنفيذ الأعمال ومبدأ

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٢٨٩.

التكليف فردى بحت.

والناظر المستقرئ لمدنية اليوم، يظن أنها نتاج حكومات ومؤسسات، إلا أن المتتبع لها، ولبداياتها يعلم أنه ابتدأت بمحاولات فردية، فكثير مما نشاهده من شركات أو مؤسسات بدأت بزمام مبادرات فردية، تطورت ـ مع الأيام ـ إلى جماعية، وكثير من متاحف العلوم والجيولوجيا ومعاهد البحوث، كان إنشاؤها فرديًّا حتى أثبتت وجودها ودعمت من قبل الحكومات، بل حتى المعارض والحدائق العامة، كانت ملكاً لأفراد صبوا جهود حياتهم فيها، حتى وصلت إلى مرحلة استحقت أن يشارك المجتمع فيها.

وما تنعم المجتمعات الحديثة فيه الآن من طائرات وسيارات، وأجهزة، بل ومن علوم إنسانية وأفكار مدنية إلى جهود رواد الحضارة، وبناة المدنية من أشخاص ملكوا قدرة الإبداع ـ بفضل الله وحكمته ـ وزمام المبادرة، وتحملوا العوائق حتى وصلوا إلى الإبداع الذى قاد إلى إعمار هذه الأرض.

لذا.. صار من الضرورى إدراك مثل هذا الاستقراء، كى يكون دافعاً للداعية، إلى التفكير المستمر، والعمل الدائب، للمشاركة الإيجابية، حتى يشارك فى مسيرة البناء، أما فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة، فيضمر هذا المعنى مع الأسف كثيراً....

وعلى الطريق... رجال

وبالرغم من وجود ملامح معنى هذه السلبية عند معظم الدعاة اليوم، إلا أنه تبرز أمثلة فى الإيجابية يقتدى بها...

* ولعل أولها تجربة الأستاذ الشهيد عبد الله عزام ـ رحمه الله ـ وما أداه فى بلاد الأفغان، ونقل الكثير من التجارب، والفقه التربوى، وصار قدوة للمئات من الشباب، وأذكى روح الجهاد، وهى تجربة ابتدأت فردية، ثم اتخذت الطابع الجماعى من خلال التجربة والحوار.

* وذلك الداعية الإيجابى الذى آلمته المجاعة فى إفريقية، فترك مهنة الطب، والعيش الفاره، وبدأ عمل الإغاثة بمجهود فردى، وصب كل أفكاره فيها، حتى تحول ـ بإذن الله تعالى ثم بمؤازرة مجاميع العمل الإسلامى ـ عمل الإغاثة من جهود فردية إلى منظمة كبيرة تخدم الكثير من الأمور فى إفريقية، وتحولت إلى سمة بارزة فى

العمل الإسنادى، وصار مثالاً يحتذى به فى خدمة القضايا الإسلامية.

* وقس على ذلك... المحاولات الرائدة فى محاولة تجميع الزكاة وتوزيعها، التى بدأت بإيجابية بعض الدعاة، حتى تطورت مع الأيام إلى أعمال جماعية، تخدم قضايا الأمة الإسلامية، وتربطها مع جماهير الأمة أخذاً وعطاءً.

* وإن الكثير من الجمعيات الإسلامية، ودور الرعاية والاتحادات الطلابية فى الغرب، لم يخطط لها الشرق ـ حسب علمنا ـ بل كانت جميعها بجهود إيجابية لداعية التف حوله بضع دعاة فى بادئ الأمر، ثم تطورت مع الأيام، فأصبحت فيما بعد مؤسسات جماعية، تؤدى أعمالاً كبيرة لها أثرها.

* وهناك المجهولون من الأوائل الذين جمعوا الأناشيد الإسلامية، أو قاموا بتسجيلها، أو كانت لهم محاولات التصوير والنشر، أو الذين قاموا بتسجيل الأناشيد وأغانى الأطفال، حتى تحولت هذه الوسائل الإعلامية إلى ظاهرة كبيرة لا يخفى إسنادها للعمل الدعوى، وانتشار الوعى الإسلامى.

* وتأتى مثل هذه المحاولات فردية ـ فى أمور كثيرة لا يمكن حصرها كلها ـ تبرهن أن الأعمال الكبيرة تبدأ فردية بعمل إيجابى يتطور مع الأيام، أو أن الأعمال الكبيرة ذاتها قد تكون مجموعة من أعمال صغيرة وأدوار صغيرة تتراكم مع الزمن، ويطرح الله ـ تعالى ـ فيها البركة والنماء.

الإيجابية... إعذار إلى الله

وقد تؤدى الإيجابية إلى الكثير من العمل الإسلامى بذاتها، كما أن لها نتائج باهرة، فمنها وما يتفرع عنها من علم وعمل، ومعذرة واعتذار، فالمعذرة إلى الله ـ عز وجل ـ من التقصير حيث أداء الواجب جهد الإمكان والاستطاعة، وبالتالى شعور المؤمن بالأداء وحسن النية، إذ إنه يؤدى ما عليه، وليس عليه النتائج، وهذا المعنى هو المطلوب من التكليف، ولقد عذب الله أقواماً تركوا الدعوة للخلق، بحجة أن الموعظة لا تؤثر فى قومٍ الله مهلكهم أو معذبهم، بينما امتدح الله آخرين اعتذروا إلى ربهم، وقاموا بأداء الواجب المعين عليهم، فالمعذرة إلى الله واجب عينى على المؤمن أن يؤديه بإيجابية، دون انتظار لما يعمله الآخرون.

وكذلك الاعتذار للقائد فى أداء الواجب، ولو أخذنا قصة الهدهد كمثال على

العمل الإيجابى لرأينا فيها من المعذرة والاعتذار الشيء اللطيف، حيث كان علمه نافعاً للقائد معتذراً به إليه، بل كان فى العلم، حيث النبأ اليقين، نوع سلطان قوى، ولا يتنافى هذا مع النية، فإن طاعة القائد واجبة، والإيجابية مظهر غير مباشر للطاعة.

(إن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذاباً شديداً، أو يذبحه، إنما نجا منه بالعلم، وأقدم عليه فى خطابه بقوله: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾[١] خبراً، وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم، وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته، بمثل هذا الخطاب، لولا سلطان العلم)[٢].

إذ لولا إيجابية الهدهد، لما قبل القائد اعتذاره، لأن عموم الارتباط بجماعة المؤمنين يقتضى أداء عمل، ضمن الأهداف المعلومة، وليس بالضرورة أن يكون التابع منفذاً لأوامر فقط، وكذا الدعاة يجب أن لا يقفوا عن حد الواجبات، أو عتبة الأوامر، فالسكون تقصير، والوقوف ضعف، ولكن العمل الإيجابى يدرأ عتب أو ملامة الأمير.

(وفى قوله: ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[٣]، دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه، وإنما صار صدق الهدهد عذراً، لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد، وكان سليمان ـ عليه السلام ـ حُبب إليه الجهاد، وفى الصحيح: ليس أحد أحبّ إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل...)[٤].

ثقة وهمم عالية

وفى الإيجابية احترام للنفس، وثقة بها، حتى لا يستهين المؤمن بنفسه، ويغرر به الشيطان أنه لا يصلح لأمر ما فيقعده عن العمل، أو يزهده عن الأداء، إذ قد يأتى الشيطان عن طريق إشعار الداعية بأنه لا أهمية له، أو يحدثه بأن العمل ضَرْبٌ من الرياء، وأن الحديث فيه مظاهر الغرور، فيجب له العزلة، ويزين له الانكماش ويصور له العزلة ورعاً، والانكماش تعففاً، وعدم الحديث تواضعاً فيفوت عليه

(١) سورة النمل: ٢٢.
(٢) مفتاح دار السعادة ١ / ١٧٣.
(٣) سورة النمل: ٢٧.
(٤) تفسير القرطبي ١٣ / ١٨٩.

obeikandl.com

المصالح، ويسد عليه طرق الخير، وتذهب عنه الأوقات، وتهدر فيها الطاقات، وإذا ما عجز الشيطان عن ذلك فإنه يربك الأولويات على الداعية، ويقوده لترك الأفضل وإتيان المفضول، تحت نفس التبريرات، ووفق نفس الحجج، ولهذا كان من الضرورى تفهم الداعية العلم الشرعى الذى يسد به منافذ الشيطان، ويغلق به أبواب إبليس، ومن أول العلم الثقة بالنفس، وتأييد الله تعالى.

ومن الثقة بالنفس معرفتها، والتوجه إلى المعالى دائماً، والرنو نحو القمم السامقة، أما رأيت لذلك الرجل الذى قيل له: عندى لك حويجة. فقال له: اطلب لها رُجيلاً. فإنه يبحث عن القضايا التى يطلب لها الرجال، وهكذا يفعل أصحاب العزائم، حتى ولو كانوا من طلبة الدنيا، ولعل من هؤلاء يزيد بن المهلب الذى هرب من الحبس، فقيل فى قصته: إنه مرّ برهط من أهل البرية رعاة، فقال لغلامه: استسقنا منهم لبناً. فسقوه، فقال: أعطهم ألفاً. قال: إن هؤلاء لا يعرفونك. قال: لكنى أعرف نفسى [١].

فانظر إلى مقدار معرفته بنفسه، وما أراد لها أن تنزل عن مقدارها، فكيف بهمم أهل الدين التى يجب أن تكون أعلى وأسمى، وهكذا كانت مطالب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، فكل منهم كان فى الموضع الأعلى من الرغبة فى المعالى، فهذا ربيعة بن كعب الأسلمى أقصى أمانيه عندما سأله الرسول ﷺ «أسألك مرافقتك فى الجنة»، والإمام على ـ رضي الله عنه ـ يحدد غاية ما يشتاق إلى فعله (الضرب بالسيف، والصوم بالصيف، وإكرام الضيف)، وسيف الله المسلول الذى لا يريد أن تقر عيون الجبناء يقول:

(ما من ليلة يهدى إلىّ فيها عروس، أنا لها محب، أحبّ إلىّ من ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد، فى سرية، أصبِّح فيها العدو..) [٢].

لا تبخل بالقليل

ومن خصائص الإيجابية عدم استصغار الأمر، وعدم استكثار الكثير، فربّ صغير عظَّمته النية، وربَّ عظيم صغرته النية، وقد تؤتى الكلمة الطيبة ثمارها ـ بإذن الله تعالى ـ ولقد سئل أحد العلماء (إلى متى تظل تكتب العلم؟ فقال: لعل الكلمة

(١، ٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٧٥، ٤ / ٥٠٣ ، ورجاله رجال الصحيح .

التى فيها نجاتى لم تكتب بعد)، وما يدرى الإنسان متى يقول الكلمة فيهدى الله بها خلقاً كثيراً. .

وقد أورد الرسول ﷺ أن من البر أن يُفرغ أحدكم فى دلو أخيه أو أن يبتسم الإنسان فى وجه أخيه، أو حتى أن يلقاه بوجه طلق. . .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾[١].

(. . قال ابن مسعود: هذه أحكم آية فى القرآن، وصدق، وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية، القائلون بالعموم، ومن لم يقل به. . . وأن الرسول ﷺ لما سئل عمَّا فى أجر الحمر، قال: «**وإن فى الحمير مثاقيل ذر كثيرة**». . . وأن أم المؤمنين قالت عن صدقة حبَّة العنب: كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة. . وعن سعد بن أبى وقاص عندما دفع لسائل تمرتين: ويقبل الله منا مثاقيل الذر، وفى التمرتين مثاقيل ذر كثيرة. . .) [٢].

وفى استلهام الداعية لمثل هذه النصوص دافع كبير إلى عدم استصغار الأعمال الصغيرة، أو الأقوال العارضة فى دعوته، فلا يبخس فى الحديث للأهل، أو الكلام لطفل، أو التربيت على كتف غلام، أو التبسم لجار فى طريق، أو النصح لمرافق فى العمل، أو الاستماع لكلمة أو مقالة، أو التنصت للقرآن الكريم أثناء قيادة السيارة، وشبه ذلك مما يكسب الأجر الكبير، والمثوبة العظيمة، والله يضاعف لمن يشاء.

إن من يعتدى ويكسب إثما ... وزن مثقال ذرة سيراه
ويُجازى بفعله الشرّ شرًّا ... وبفعل الجميل أيضاً جزاه
هكذا فى قوله تبارك ربى ... فى (إذا زلزلت) وجلّ ثناه

وعدم الزهد فى القليل أولى من القعود، والسكوت والقعود أولى من الحديث بالباطل، فإن النفوس مجبولة على العمل وحب الحديث، فإذا لم تجتمع على الحق، فرقتها أحاديث الباطل، والشيطان لايدع الإنسان فى عزلة من أمره، فما أن يترك الإنسان العمل الصائب حتى يشغله الشيطان بترهات الباطل، وكم هى التجارب الناطقة من محيط الدعاة، فإن أحاديث الغيبة، وعبارات التهكم والسخرية، وأقوال النقد والتثبيط، لا تأتى إلا من القاعدين والكسالى، ولا تنمو إلا فى أجواء الراحة

(١) سورة الزلزلة :٧، ٨.
(٢) تفسير القرطبى ٢٠ / ١٥٢.

والفتور، وخصوصاً عند الشباب، وفى هذا يقول أبو العتاهية فى حكمته التى تتردد عبر الأجيال:

إنما الفراغ والشباب والجده مفسدة للمرء أى مفسدة

وإياك والفراغ

وقبله كره ابن مسعود الفراغ للمرء مهما كان، فقال:

(إنى لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس فى عمل آخرة،ولا دنيا..) وما أكثر ما نطق الشعراء والحكماء بهذا المعنى، حيث إدراكهم لمعنى الحياة، وضرورة استثمارها..

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانى

وإذا كان الأقدمون يستشعرون هذا المعنى من دقات القلب، فما أحرى بداعية اليوم استشعارها من دقات الساعات فى كل مكان ومن إشاراتها الرقمية فى كل معصم، وهى تسجل مرور الثوانى والدقائق التى لن تعود، ناهيك عن الأيام والليالى، وأن يكون مع الإمام الشهيد فى حكمته الخالدة، **حيث يقول:** (الوقت هو الحياة) وكان يكرر أيضاً: (الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك).

ولكن الرجوع إلى تتبع دقات القلب أجزل معنى وأوضح تذكيراً، فإن ثّم فى القلب الفهم والوعى والإدراك والإيمان.

فلولا تفقد داعية قلبه، ثم رجع فتفقد.. ثم رجع، لعله يقرب من الإبداع والإيجابية خطوات...

وإياك والهوى

وهناك مجموعة من الأسباب والعوامل تؤثر فى إيجاد الإيجابية الدعوية، أو تقويتها، أو المنع من فتورها، لابد من أخذها بنظر الاعتبار والتنبيه المستمر عليها من خلال الوعظ الدعوى، والمناهج التربوية، أو جداول المحاسبة الذاتية، ولعل أهمها ومبتدأها: تقوية الإيمان، والإيمان بداية الأمر، وأس العمل،ولا شك، ولكن المقصود هنا الالتزام بعوامل تقوية الإيمان، وأنشطة زيادته بالطاعات التى من شأنها أن تزداد إيجابية المؤمن بها، وتتقوى ذاتيته بمقتضاها. والعوامل هذه كثيرة ـ لا يمكن

الاستطراد بها فى هذا المبحث ـ ولكن يشار إليها فحسب، إذ إن من أهمها، الذكر وتلاوة القرآن، وتذكر الآخرة، وحضور الجنائز، وزيارة المقابر، وكثرة السنن، وقيام الليل، وصيام التطوع، والزيادة من كل بر، والأخذ بكل معروف.

كما أن الإيمان مرتبط بصحة النية، وسلامة القصد، وعدم حصول الهوى، أو غلبة الشبهة، لأن اتباع الهوى يضل عن السبيل ويقعد عن العمل الصائب، وشعور المؤمن بأن عمله لله ـ تعالى ـ يدفعه للمعالى، ويفجر مكنوناته، ويستسهل الصعب فيه، ويتجاوز العقبات له، وتتكون العزيمة التى تدفع كل حواسه، وتظهر كل طاقاته على شكل عمل مثمر وبناء، وكما أن صحة النية مهمة، فإن الانشغال بالعمل الصالح وترك الشهوة، هو الآخر يقود إلى تفتح البصيرة وترك الباطل، والتمتع بلذة الطاعة، وينمى القوة فى طاعة الله، ويقوى الإبصار فى الحق، وكل من صحة النية وصواب العمل، وإن كانا مما يقوى إيجابية المؤمن، فهما بنفس الوقت بحاجة إلى إيجابية، ولكنها سنة الحياة، فالعمل يدفع إلى العمل، والحسنة تقود إلى الحسنة، والحركة تولد الحركة، والطاعة تجلب الطاعات، وهذا من فضله تعالى على العباد.

وعليك بحفظ الهمة

ويبقى العامل المهم فى حياة الدعاة، وهو الاحتفاظ بالهمة، وكان الجنيد البغدادى ـ رحمه الله ـ يوصى الداعية بذلك.. **فيقول:**

(عليك بحفظ الهمة، فإن الهمة مقدمة الأشياء).

والاحتفاظ بالهمة مسارعة للخير، فاغتنام الصحة قبل المرض، والنشاط قبل الفتور، والحياة قبل الموت، والغنى قبل الفقر، مراحل حاسمة فى تاريخ الإنسان، وبينهما مراحل أقل ومفاوز أصغر، يعظنا المصطفى ﷺ بالأكبر، ليتسدل بها على الأقل، **ولذلك يقول الشاعر:**

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكونا

(إذا فتح أحدكم باب خير، فليسرع إليه، فإنه لا يدرى متى يغلق عنه)[١].

أودية بقدرها

ومما يحقق الإيجابية عند الداعية: العلم، والعلم الصائب دافع للعمل الصائب... (إن العلم إمام العمل، وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٤٠ .

لايكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه، بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: مَنْ عَبَدَ الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، والأعمال تتفاوت فى القبول والرد بحسب موافقتها للعمل ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك..)[١].

فالعلم الفاسد قد يقود إلى العمل الفاسد، والعلم الصالح يذكر الداعية باستمرار بماهية الحياة وطبيعة التكليف، وعاقبة الإنسان، كما أنه يذكره بالآخرة، وما أعد الله لعباده من الثواب والعقاب، ويحرك مشاعره الخيّرة نحو السمو، ويزيد همته نحو الفضيلة، ويكون له من زاد العلم ما ينبهه من عاقبة الكسل ومغبة الفتور، فيدفعه إلى العمل المثمر، والعلم يذكر بمصارع الأقوام، ومهلك الظالمين، والعاقبة التى كانت للمصلحين، فيستزيد من الخير، ويندفع نحو العمل، وبالعلم تصفو النفوس، ويذهب كدر المعاصى، كما شبهه الله تعالى بالأودية التى تذهب بالزبد، وتجعله جفاء، وتشبيه القرآن الكريم للعلم النافع بالماء الجارى دليل على روعة العلم المتحرك وأثره فى الحياة والنفوس، كأثر الماء المتحرك فى إزالة العوائق، واكتساح الشوائب.

لذا.. فلابد للعلم من أن يكون متحركاً فى قلب الداعية، فيدفعه للعمل حتى تصفو القلوب، ويذهب الكدر، كما وصفه تعالى:

﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾[٢].

(وهذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط بشاشته القلوب، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب، كما يستخرج السيل من الوادى زبداً يعلو فوق الماء، وأخبر سبحانه وتعالى أنه رابٍ يطفو ويعلو على الماء لا يستقر فى أرض الوادى زبداً، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب، وطفت، فلا تستقر فيه، بل تجفى وترمى فيستقر فى الوادى الماء الصافى، ويذهب الزبد جفاء، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون)[٣].

●●●●●

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ٨٢.
(٢) سورة الرعد: ١٧.
(٣) مفتاح دار السعادة ١ / ٦١.

صناعة الحياة

ويأتى بعد ذلك كله، عامل مهم يكتسب أهمية بالغة فى الزمن المعاصر، لتشعب مطالب الحياة، ولتأثير بعضها ببعض، بل وأصبح التأثير حاداً بسبب سهولة الاتصال، وكثرة السفر، وسهولة المواصلات، ذلك العامل هو الإبداع الذاتى، بالاستفادة من التخصص المهنى، والأخذ منه كبعد دعوى، أو استحداث الداعية تخصصاً حياتيًّا لنفسه، يجتهد فيه حسب استعداداته، وكفاياته ومقدرته، فإن إيجاد مثل هذا التخصص، أو تحويل مجرى التخصص إلى ما ينفع الدعوة، يفجر الإبداع عند الداعية، ويدفعه إلى المزيد من العمل الإيجابى، ويصعد عنده الهمة، فيجعل وقته مثمراً، وحياته دافقة.

ولو عدنا إلى ما استدل به من إيجابية الهدهد، لشوهد أنه يمكن أن يؤخذ من القصة تميزه بشىء من الإبداع، إذ كانت له معرفة بالماء تحت الأرض، فكان بعض المفاهيم الدعوية بما يدركه، فنوّه بقدرته تعالى بإخراج الخبء فى السموات والأرض، ولذا كان لابد لكل داعية، أن ينظر بنور الله تعالى، حتى يظهر الفن والعلم والإبداع فى منطقه وروائه، ويكون فى خدمة الدعوة، وثمرته تصب فى مجال الحركة، بل إن القدرة العلمية والفنية تنعكس فى الأداء الدعوى، ففى المجال الأول، استنبط الزمخشرى نفس المعنى من قصة الهدهد، فقال: (. . . . وفى إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد، لهندسته، ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض ـ جلت قدرته، ولطف علمه ـ ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم، فى روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمى عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله. . . .)[(١)].

وفى المعنى الثانى، قال ابن القيم ـ **رحمه الله** ـ شارحاً للآية الكريمة:

(. . والنبأ هـو الخبر الذى له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفتـه، ثم وصفه بأنه نبأ يقين، لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدى إخباره لنبى الله بذلك النبأ، استفرغت قلب المخبر، لتلقى الخبر، وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال، وخطاب التهييج، ثم الكشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التوكيد. . .)[(٢)].

(١) الكشاف ٣/ ١٤٥.
(٢) شفاء العليل / ٧١.

والله سبحانه وتعالى قصّ أحسن القصص للاعتبار، وللقياس عليها، وفى هذه القصة نعم العبرة، وأفضل الاستدلال للدعاة كى يضعوا فن التخصص وموهبة العلم فى خدمة الدعوة وصلاح النفوس، ولقد تكفل كتاب الراشد (صناعة الحياة) بتوضيح المعنى للدعاة.

ضرورة الاستيعاب

ومن الضرورى بمكان معرفة الداعية أن ما قد يعرفه أو يتقنه قد لا تتقنه قيادات، ولا يكد يمر على ذهن الأمراء، فكل أمر قد استأثر لله به بعض الخلق، ألا يلاحظ الداعية أن الله استأثر بعض مخلوقاته بما يعجز عنه الإنسان، حتى يستدل به على عظمة الخالق من جهة، وضعف المخلوق من جهة أخرى، وأن كل مخلوق محتاج إلى غيره من جهة ثالثة، ورابعة أخرى أن كل فضل من الله وإليه، وفى كل أمر عبادة، وإدراكها عبادة، والسعى بمقتضاها عبادة، وفضل الله أوسع بعد ذلك كله.

ولعل هذا المعنى ـ يعود لنا ـ مرة أخرى من قصة الهدهد، فهذا النبى الذى أوتى من كل شىء تقريباً، وسخر له الجن والإنس، ظهر ضعفه أمام الهدهد، ورد عليه، وتصاغرت عنده نفسه، وهو يشعر باحتياجه للطير الضعيف، بل ودافع الهدهد عن نفسه، ونافح عن تغيبه بحجة بليغة...

(ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة، والعلوم الجمّة، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة، ابتلاء له فى علمه، وتنبيهاً على أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به، لتتحاقر إليه نفسه، ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفاً له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء، وأعظم بها فتنة، والإحاطة بالشىء علماً أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم...) [(١)].

وبالمناسبة، يشار هنا إلى معنى ملازم، وهو ضرورة استيعاب المربين لهذا المعنى، واحترام ما يصل إليهم من إبداع الأفراد، وأفكار الأتباع، وإيجابيات الدعاة، ويدعموا ذلك بالإعانة، ويتمنوا لهم التوفيق، ويباركوا ذلك بالتشجيع، ما دام ضمن مسيرة العمل الصالح، اقتداءً بالأنبياء والمرسلين، وعدم الوقوع بفتنة العجب، أو الاعتزاز بالرأى، أو الحرص على رأى معين، فالحكمة ضالة المؤمن، وهو أولى بها، أنّى وجدها....

(١) الزمخشرى فى الكشاف ٣ / ١٤٣.

اقتراحات على الطريق

ولا يمكن ـ أخيراً ـ فى هذه العجالة تسجيل الخطط والأعمال، التى يمكن أن يقوم بها الداعية، وإنما هو التذكير وحسب، بما ينبغى له من حصر ذهنه، والبحث عن مجالات الأداء، ولكن يمكن ذكر ما يمكن أن يقيس عليه، مما يغنيه عن انتظار الخطط، أو توقع الأوامر:

* ففى مجال تقوية الإيمان، عمل كل ما يؤدى إليه، من زيارة القبور، وحضور المساجد، أو الاعتكاف فيها،وقبل ذلك تلاوة القرآن وحفظه، بل وفى الدرجات الدنيا، التفكر فى خلق الله، والتأمل فى مصالح الدعوة،ولقد روى عن أبى الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول: (تفكر ساعة، خير من قيام ليلة) (١).

علم وتعلم

* وفى مجال العلم بجانبيه: التعليم والتعلم، فالداعية بدلاً من صرفه الوقت بما لا ينفع، تناول كتابًا لقراءته وتلخيصه، أو الاستماع إلى محاضرة إسلامية، أو حضارية نافعة، أو المطالعة فى كتب الصحابة وآثارهم، والعيش مع أنفاسهم...

(قيل لعبد الله بن المبارك: إذا أنت صليت، لم لاتجلس معنا ؟ قال: أجلس مع الصحابة والتابعين، أنظر فى كتبهم وآثارهم،فما أصنع معكم ؟ إنكم تغتابون الناس) (٢).

وعلى الداعية أن لا يتكبر أن يسمع غيره،فلا يدرى الكلمة التى ينتفع منها،وما من خطيب أو واعظ إلا وتستفيد منه فكرة، أو خبراً، أو تذكيراً بعلم قديم قد نسى، أو ربطاً بحادثة واقعية، أو على الأقل لا يخلو الواعظ من عرض جديد لمعلومة معروفة، أو نبرة تبلغ إلى أعماق القلب، ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستمع إلى قراءة أُبى بن كعب وأبى بكر رضي الله عنهما للقرآن، وعليه أنزل، كما أن الداعية قد يسمع الكلمة من شخص آخر،فيبنى عليها من المعانى،وتزدحم عليه الأفكار فيصل إلى مجموعة من الحقائق، ويربط بين مجموعة من القضايا لم تكن فى ذهن المتحدث، ومما قيل فى ذلك ما قاله التابعى الجليل عكرمة تلميذ ابن عباس: (إنى لأخرج إلى السوق، فأسمع الرجل يتكلم بالكلمة، فيفتح لى خمسون باباً من العلم...).

أما المتخصص فى مسألة ما أو فن معين،فله المجال الأرحب، كتصنيف كتاب،

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٨، ٥ /١٨، ٨ / ٣٨٩.
(٢) انظر المرجع السابق.

أو كتابة مقالة، أو تحقيق مخطوط، وما أسهل ما يمكن للداعية من إتعاب نفسه، بتجميع المعلومات، وشحذ الذهن لكتابة مقال لأحد المجلات الإسلامية، أو تحضير درس لإلقائه فى مسجد، وليس ـ فى مجال العلم ـ بأقل من السؤال والاستفادة، وإلا فهو الإفلاس المحض، والخسارة القاتلة، فقد قال أبو سلمة سعيد بن زيد:

(سمعت عكرمة يقول: ما لكم لا تسألونى، أأفلستم..)[1].

زيارات ودروس

* وما أكثر الأعمال الممكنة فى الإطار الاجتماعى، كزيارة تكسب فيها صديقاً، أو أمراً بالمعروف، أو تجلب فيه خبراً لجماعة المؤمنين، أو تتعرف فيها على تاجر أو متبرع يعين الأنشطة بماله، أو على شيخ ووجيه يؤثر فى أتباعه ومحبيه، ولا يقتصر العمل الإسلامى على المجتمع، فالبيت أحوج إلى الداعية، فعليه تجاوز الفتور وقصور الهمة، وأن يقوم بدرس للزوجة وإرشادها، وللأطفال والأقرباء، حتى ولو بالتلاوة من كتاب.

تحليل ونقد

* وفى إطار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بالشكل الإيجابى، مجال واسع، وآفاق ممتدة، حيث الملاحظة اليومية لأمور المنكر التى ينبغى إزالتها من المجتمع، فيسهم بكتابة موضوع نقدى فى الصحافة، أو يقوم بإرسال رسالة ترد على موضوع، أو تؤيد موقفاً، أو تستنكر مقالة، أو أن يقوم بإرسال برقية إلى جهة، أو يرفع سماعة الهاتف مستنكراً برنامجاً سيئاً، أو مؤيداً لمحاضرة موفقة، أو أن يقوم بالكتابة إلى وزير أو مسئول يدعم رأيه الجيد فى موقف، ويستنكر منه الموقف السيئ.. وهكذا يحاول أن يكون الداعية، ولو عمل كل الدعاة بهذا المنهج، وأدى كل واحد واجبه.. لأدى هذا الأمر إلى الكثير من الخير، إذ سوف يستلم الصحفى والإعلامى والمدير والوزير، مئات بل ربما الآلاف من الردود أو المعارضة لموقف الشر، فيقود إلى الامتناع، أو على الأقل للتوقف عن المزيد، ولا يستغرب هذا الموقف، فحتى الفاسق من الناس ـ مهما كان سيئاً ـ فهو بشر، إذا لم تمنعه الاعتراضات خشية من الله، فإنه سيمتنع خوفاً على مركزه، أو حرصاً على سمعته..أما سكوت الجميع عن الشر، فسيقود إلى شر أكبر، وعدم تشجيع المعروف، يقود إلى الزهد فى إتيانه.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٨، ٥/ ١٨، ٨/ ٣٨٩.

أشواق إلى الآهات

* وفى إطار الجهاد والأداء الحضارى، قد تذكر هنا عبارة الإمام الجنيد: (هب أنك لا تخاف، ويحك... ألا تشتاق..)

ونستعير اللفظ للمعنى الذى يراد، فيقال للداعية: هبْ أنك لا تريد العمل، ويحك ألا تشتاق، فأين أشواق المؤمن للجهاد، أفلا تكتفى منه بشىء من المرابطة، وحضور الساحات الساخنة، أى آهات المؤمن على آلام المسلمين، أفلا يكتفى بمشاهدة بعضها، أين التشبه بما حكاه الله لنا عن الهدهد ؟ ألا يقود ذلك إلى نقل خبر، أو ترجمة مقال، بل أين الحرص على تحديث النفس بالغزو ؟ ألا يقتضى تعلم فن من الفنون كالجودو أو السباحة ؟ وأخيراً أين اللهو المباح الذى يستجم به حتى تقوى النفس على الحق، أليس منه تعلم رياضة، أو إتيان هواية..؟ وفى عالم الكمبيوتر اليوم الشىء الكثير.

إبداع وتجميع

ثم أليس ـ فوق ذلك كله ـ يمكن للداعية أن يجمع ما يقرأ فقط، ويتخصص فى موضوع ما، فى عالم السياسة أو التاريخ، أو الإدارة والجغرافية، أو حتى فى الرحلات والمغامرة، فيجمع أرشيفاً ويكون مختصًّا دعويًّا فى أحد أبواب المعرفة؟ بل أليس من السهل أن يجمع الإنسان خواطره فى إطار معين لتكون تجربة دعوية، كما فعل الأستاذ عباس السيسى ـ جزاه الله خيراً ـ بتجميع قصصه الدعوية الجميلة، فأنتج ثروة جميلة فى معانى الاتصال الفردى والتجميع، كانت مثالاً ينسج عليه؟

فإذا فرغت فانصب

ثم ليحذر الداعية من الفتور، ويجب عليه أن يلحق العمل بالعمل، والتعب بالنصب، والجهد بالمشقة، فتيار الحياة صغير، وفرصة العيش محدودة، وإياك وضياع الوقت، وذهاب الفرصة، فهذا النبى ﷺ وقد غُفر ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يخاطبه ربه بضرورة النصب بعد الفراغ، بل:

(لما عد نعمه السالفة ووعوده الآنفة، يحثّه على الشكر والاجتهاد فى العبادة والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض، ويتابع ويحرص على أن لا يخلى

وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى.

وعن ابن عباس: فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد فى الدعاء..

وعن الحسن: فإذا فرغت من الغزو فاجتهد فى العبادة...

وعن مجاهد: فإذا فرغت من دنياك فانصب فى صلاتك..) [١].

ولابد من التذكرة دوماً بضرورة المداومة، فكم من داعية تحمس لعمل، ثم فتر عنه، وإنما البركة فى المداومة بعد حسن القصد وصدق النية، بل إن المداومة على العمل أحد مظاهر صدق النية، وسلامة القصد، والتذكر أن النجاة إنما تتم بذلك، وليس بكثرة العمل الذى لا نية معه، أو لا فائدة منه...فعن عائشة أم المؤمنين قالت: إن رسول الله ﷺ قال: **(سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله، وإن قل...)** [٢].

(...قوله: **(سددوا)** وفى رواية..عن مسلم: **(ولكن سددوا)**:

ومعناه: اقصدوا السداد، أى الصواب، ومعنى هذا الاستدراك أنه قد يفهم من النفى المذكور نفى فائدة العمل، فكأنه قيل بل له فائدة، وهو أن العمل علامة على وجود الرحمة التى تدخل العامل الجنة، فاعملوا واقصدوا بعملكم الصواب، أى اتباع السنة، من الإخلاص وغيره، ليقبل عملكم، فينزل عليكم الرحمة، قوله **(وقاربوا)** أى لا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم فى العبادة لئلا يفضى بكم ذلك إلى الملال، فتتركوا العمل فتفرطوا..) [٣].

الكلمة المعطاء

الكلمة الطيبة كحبة القمح المفردة، قد تُهمل وتذهب أدراج الحياة، وقد تكون مباركة فتنبت وتثمر، بل وقد تكون الثمرة خصبة تتضاعف وتتضاعف، وتنتشر هنا، أو تنتقل إلى هناك، فتناسب أرضاً صالحة وموروداً عذباً، فتتضاعف إلى سبع مائة ضعف، بل إلى ما شاء الله،وتؤتى أكلها بإذن ربها، والكلمة الطيبة فى أول مبتداها **(صدقة)** كما أخبر عن وصفها الصادق المصدوق، والصدقة تتضاعف بالنية، وتتضاعف بالأثر منها، فكذلك الكلمة قد تحتفظ بذاتها، وقد تنمو وتنمو حتى تكون كالشجرة الباسقة،ويتحقق فى ذلك قوله تعالى:

(١) الكشاف ٤ / ٢٦٧. (٢) متفق عليه. (٣) فتح البارى ١١ / ٢٩٨.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١).

وللبحث عن خصائص هذه الكلمة المعطاء لابد من البحث عن صفات الشجرة التى شُبهت بها، والتى تظهر من الآية أنها أربعة خصائص:

(. . . . . فالصفة الأولى لتلك الشجرة كونها طيبة، وذلك يحتمل أموراً:

أحدها: كونها طيبة المنظر والصورة والشكل.

وثانيها: كونها طيبة الرائحة.

وثالثها: كونها طيبة الثمرة. . .

ورابعها: كونها طيبة بحسب المنفعة. . .

والصفة الثانية قوله: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾(٢) أى: راسخ باق آمن الانقلاع والزوال والفناء. . .

والصفة الثالثة قوله: ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾(٣) وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين:

الأول: أن ارتفاع الأغصان وقوتها فى التصاعد يدل على ثبات الأصل.

والثانى: أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض. . .

والصفة الرابعة قوله: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾(٤) . . . وهى أن ثمراتها لابد أن تكون حاضرة دائمة فى كل الأوقات. . .

ومن المعلوم بالضرورة أن الرغبة فى تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة (٥).

وهذا يقود إلى بعض ملامح الكلمة الطيبة إذ إنها جميلة رقيقة لا تؤذى المشاعر، ولا تخدش النفوس، جميلة فى اللفظ والمعنى، يشتاق إليها السامع ويطرب لها القلب، كما أنها طيبة الثمر، نتائجها مفيدة، وغايتها بنَّاءة، ومنفعتها واضحة، وفوق ذلك فإن أصلها ثابت مستمدة من المنبع الصافى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وتمتد إلى السماء بفرعها لأنها نقية صادرة عن نية صادقة، وتؤتى أُكُلها باستمرار، يسمع

(١، ٢، ٣، ٤) سورة إبراهيم: ٢٤، ٢٥.

(٥) تفسير الرازى ١٩ / ١١٦.

السامع فينتفع بها، وينقلها لغيره فينتفع، حتى لينتفع بها الخلق الكثير، بل ويستمر الانتفاع بها إلى ما شاء الله، وليس ألصق بهذه الخصائص وأكثر قرباً من كلمات الدعاة المؤدية للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والداعية إلى العمل الإسلامى، وبناء مقوماته، والهادية الناس إلى الخير ومستلزماته، والتى تعلم الدعاة البناء وطرقه، وتهديهم إلى الجهاد ومعرفة قواعده الشرعية، وما قد يقود ذلك إلى تخطيط لدولة الإسلام، أو من مناهج لنشر الحق بين الأنام.

وتشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة، لأن الشجرة تثمر الثمر النافع كالكلمة التى تؤدى إلى العمل الصالح، **وقد قال بعض السلف**: إن الشجرة الطيبة هى النخلة لحديث عبد الله بن عمر فى الصحيح، ولا فرق بين خصوص النخلة أو عموم الشجر الطيب، ففى كليهما يتأدى المعنى، والأصل التشبيه بالشجرة والمشبه بها شجرة الإيمان ليحصل التطابق.

(فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسمت الصالح، والهدى والدّل المرضى، فيستدل على غرس هذه الشجرة فى القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور...) [(١)].

وقد قال بعض السلف عن الكلمة الطيبة: إنها كلمة التوحيد، وعموم اللفظ أنها كل كلمة طيبة، ولا منافاة بين القولين، فإن الكلمة لا تطيب إلا أن تكون مبنية على أصل التوحيد، وكلمة التوحيد لا تثمر إلا الكلمات الطيبة، والأصل فى الكلام الطيب المثمر ما كان مبنيًّا على أُسس الشريعة، وقواعد العقيدة، ولهذا فإنّ أصلها ثابت.

(الكلمة الطيبة هى شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مُرضٍ لله ثمرة هذه الكلمة... فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتى ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة هى التى رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلماً كثيراً طيباً يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [(٢)]، فأخبر سبحانه وتعالى أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحاً كل وقت...) [(٣)].

---

(١) إعلام الموقعين ١ / ١٨٩.
(٢) سورة فاطر: ١٠.
(٣) إعلام الموقعين ١ / ١٨٩.

وهكذا تثمر الكلمة الطيبة ـ بحسن نية قائلها ـ أو بحسنها ذاتها، أو لمحض رحمة الله عز وجل بما جعله من بركة العلم مما قد يكون أضعافاً مضاعفة عن أجر العمل ذاته، وما قد تؤديه لصلاح الخلق، وما أخصب تاريخنا الإسلامى بكثرة الخلق الذى انتفعوا بالمواعظ، ثم صاروا من قادة الأمة، وكتب الله لقائل الكلمة مثل أُجور أعمالهم من غير أن ينقص منها شيئاً.

* فهذا التابعى أبو محمد حبيب يقبل على الآجلة، وينتقل عن العاجلة بسبب موعظة البصرى حيث وقعت موعظته فى قلبه، وأقبل على العلم والعمل بعد الموعظة.

* وهذا التابعى الكوفى الثقة أبو عبد الله زاذان الكندى الذى كان يضرب ويغنى بالدف، وكان له صوت حسن فمر عليه عبد الله بن مسعود فقال (ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله) فتاب من ضرب العود وكسره، ولازم ابن مسعود حتى صار إماماً فى العلم.

* وانظر ما حصل لسرى السقطى وبشر الحافى.. وأمثالهما..

والكلمة الطيبة قد ينتفع بها سامعها المباشر، وقد ينتفع بها ــ فيما بعد ــ بل قد يكون نفعه أشد وأكبر، وقد تلاقى الكلمة قلباً صافياً، ونية صادقة، فتتمكن من القلب، وتثمر الكلمة بالنية، كما تصادف البذرة الماء الصالح، والتربة الصالحة، فتؤتى الشجرة أكلها بإذن ربها،وهكذا (فرب مبلغ أوعى من سامع)،وأجر الكلمة المعطاء، وما يكتبه الله عز وجل للسامع وللمبلغ، بل ولسلسلة المبلغين، فلقائل الكلمة كفل منها من غير أن ينقص من أُجورهم شيئاً،وهذا من فضل الله على عباده، ومما فضل به المتكلمين بالعلم عن غيره، إذا تبقى ثمرتهم منتجة وعملهم مستمرًّا، وفضلهم دائماً إلى ما يشاء الله، والناس فى استقبال الكلمة أنواع فمنهم من يسمعها ويعمل بها، ومنهم من لا ينتفع بها إطلاقاً، ومنهم من يقوم بنقلها للغير، وما ضر المتحدث أن يتحدث بما يعلم، ويبلغ الرسالة للناس، وينقل الكلمة الطيبة،فسوف يظل الناس على هذه النماذج،ويجب أن لا يقف الصنف الثالث مانعاً من تبليغ العلم، ولا حاجزاً فى بث الكلمة الطيبة،وقد شبّه الرسول ﷺ هذه الأصناف الثلاثة فى استقبال الكلمة الطيبة بأنواع من الأرض فقال ﷺ :

«مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها ثغبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت

الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به فعلّم وعمل، ومثل من لـم يرفـع بـذلـك رأسـا، ولم يقبل هدى الله الذى أُرسلت به» حديث متفق عليه.

(فالنبى ﷺ جعل العالم كمثل المطر، ومثل قلوب الناس فيه، كمثل الأرض فى قبول الماء، فشبه من تحمل العلم والحديث وتفقه فيه بالأرض الطيبة، أصابها المطر فتنبت وانتفع بها الناس، وشبه من تحمله ولم يتفقه بالأرض الصلبة التى لا تنبت، ولكنها تمسك الماء فيأخذه الناس، وينتفعون به، وشبه من لا يفهم ولم يحمل بالقيعـان التى لا تنبت ولا تمسك الماء، فهـو الذى لا خير فيه. . .) [(١)].

وهكذا، ما على الداعية سوى أن يقول كلمته المعطاء الطيبة، ولا يهتم بكثرة الخاسرين الذين هم كالقيعان، فهنالك من الناس من هم كالأرض الصلبة سينقلـون الكلمة الطيبة وتنتفع بها خـلائق وبشر كثير، وقد تثمر فى مكان آخر، أو تؤتى أُكلها فى زمن آخر، وقد يستمع للكلمة أُناس كالأرض الطيبة لا تلبث أن تسمع مع صدى الكلمة تكبيرات مدوية، ولا تمكث حتى ترى لنور الكلمة بريقاً يأخذ بالأنظار، فتحيا بالتكبير نفوس، وبالبروق تبصر عيون، والأجر من بعد ذلك مكتوب لصاحب الكلمة.

وأخيراً.. فلعل هذه الكلمة الطيبة هى من أنواع ما عناه سيد الخلق ﷺ بقوله فيما رواه البخارى:

«إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى جهنم».

وقد ركز العلماء السابقون على الشطر الثانى من الحديث لكثرة المتحدثين فى المجتمع الإسلامى، ولم يُتحدث عن شطره الأول إلا القليل، **ومما قيل:**

(والكلمة التى ترفع بها الدرجات، ويكتب بها الرضوان هى التى يدفع بها عن المسلم مظلمة، أو يفرج عنه كربة، أو ينصر بها مظلوماً. . . .) [(٢)].

---

(١) شرح السنة للبغوى ١ / ٢٨٩.

(٢) فتح البارى ١١ / ٣١١.

فكيف بالكلمة التى تدفع عن مجموع المسلمين المظالم، وتدفع عنهم الكرب بدعوتهم لإقامة شرع الله؟ وكيف بالكلمة التى تقلع الظلم من جذوره بتطبيق حكم الله؟ وكيف بعبارات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ وإذا كانت الدرجات ترفع بما يحقق المصالح الدنيوية فكيف بما يحقق المصالح الأخروية؟ وعلى الأدنى يقاس الأعلى.

إن الأجر عظيم،والثواب جزيل ـ إذا صحت النية ـ فى الكلمات التى تقيم خيراً،وتدفع باطلاً، وتحيى سنة، وتميت بدعة، بل ويزداد الأجر، ويرتفع الثواب فيما يدفع العمل الإسلامى وينميه، ويدعو جمهور المسلمين لتبنيه، أو يدفع عنه السوء وما قد يعتريه، فكيف إذن بما ينشئ العمل ابتداءً ويغذيه؟ ويعلم الدعاة النظام وفنونه، وقواعد العمل وأُصوله ؟ مما يؤدى إلى هداية الخلق الكثير، وانضمامهم لركب الدعوة وإتمام المسير، **ومع هذا يقال أيضاً**: ما هو فضل الكلمات التى تقود ـ فوق ذلك كله ـ إلى قيام مجتمع إسلامى،أو بناء حكومة إسلامية؟وكيف بما يخرج الناس من الظلمات إلى النور؟ أو تحويل المجتمع من الجاهلية إلى الإسلام؟ وإقامة شرع الله بدلاً عن شرع الطاغوت؟.

ومن هنا ينبغى للداعية أن لا يزهد أبداً بما عنده من العلم، أو يبتعد ـ بحجة الزهد ـ عن تبليغ الأمانة، فما يدرى أين يكون الخير ؟ ومتى تؤتى كلمته عطاءها، بل ومتى تثمر؟.

فالكلمة الواحدة قد تنشئ دعوة، وقد تبنى مؤسسة، وقد ينقذ الله تعالى بها قلوباً،أو يعمر بها نفوساً، بل وقد يحيى الله بها أقواماً من السبات، أو يخرج بها الله عز وجل أُمماً من عالم الأموات، وما على الداعية إلا تبليغ الرسالة، ونقل الأمانة، والله تعالى يختار الأرض الصالحة لها ولو بعد حين، وينبتها نباتاً حسناً ولو بعد سنين، وقد تؤتى الكلمة ثمارها فى المكان البعيد حتى يكتب الأجر للداعية دون أن يشعر ولعل الله تعالى يكتب له أجر النية، ويبعده ـ بحكمته ـ عن سيئة الرياء...

وما على الداعية إلا التبليغ ولا يترك الفرصة تفوت من يديه لعل الله تعالى يكتب له أجر الكلمة المعطاء التى لا يلقى لها بالاً وترفعه الدرجات، فلا يفوت عليه فرصة رفيق السفر فى القطار أو الطائرة، ولا فرصة اللقاء العابر على وليمة

أو مناسبة، ولا جلسة الاستراحة فى ناد أو مقهى، ولا جلسة المرافقة فى الدائرة أو الدراسة ولا يفوت مجال الارتباط فى تجارة أو معاملة، ولا يزهد فى الكلمة الطيبة الصغيرة فى السوق وعند الشراء، أو فى الحدائق عند الاسترخاء، أو فى المسجد بعد الصلوات، أو عند التعارف مع الغير فى السفرات والخلوات، وأشباه ذلك مما قد ييسره الله، والموفق السعيد من وفقه الله لكلمة الخير التى تنتشر فى الآفاق فيكتب الله له أجرها وأجر من يعمل بها إلى ما يشاء الله، والله على كل شىء قدير.

إن قول الكلمة بهذه النيات ظاهرة من ظواهر الإيجابية فى حياة الداعية.

كنز العجز، وثروة الافتقار إلى الله

ويظل شعور المؤمن بالعجز وافتقاره إلى توفيق الله تعالى وعونه وتسديده هو العامل المحرك والمولد لكل أسباب هذه الإيجابية، وبمقدار تذلُّله لربه تعالى واستمداده منه تكون إلهامات تنويع العمل لديه والمبادرة والابتكار، حتى ليسن سُنناً فى الخير لم يسبقه إليها أحد، ثم يصبر على لأواء مرافقة وطول طريق، فيكون النصر.

إن عجز الداعية عن وصوله إلى هدفه ـ أيًّا كان ذلك الهدف ـ بعد أن يستفرغ وسعه، ويبذل جهده، ويفنى طاقته، هو الكنز الحقيقى الموصل إلى الله، لأنه قد وصل بهذا العجز إلى مرحلة الافتقار إلى الله، واستشعر أن لا ملجأ إلا إليه، فقطع العلائق مع الأسباب، وترك بعد ذلك الاختيار، واسترسل فى مجارى الأقدار، فزاد يقينه بقدر الله، وعلم قلبه بكفاية الله، ورضى بالمقدور، وصحَّ منه التوكل، وقد يدرك المؤمن التوكل بعمومه، ولكن معنى (العجز) أدق وأخص، وفيه لا يبقى اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل اللجوء لله الواحد القهار.

فاسمع ـ أيها الداعية ـ صرخة النورسى رحمه الله فى (المثنوى العربى):

كنزى عجزى

ومن هذا المنطلق فإن النصر معلق بالله عز وجل، حتى تبذل النفوس كل طاقاتها، وما معنى الجهاد اللفظى إلا استفراغ الوسع كله، فإذا فرغت النفوس من حظ النفوس، انطبقت عليها القاعدة ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[1]، وما عمل الداعية إلا ستاراً للقدرة، فما عليه إلا أن يعمل حتى يصل إلى الكنز المخبوء تحت ظلال العجز.

(١) سورة محمد: ٧.

(نحن فى هذه الحياة الدنيا نتحرك، تحركنا أشواق وهواتف، ومطامح ومطامع، وآلام وآمال، وإن هى إلا الأسباب الظاهرة للغاية المضمرة، والستار الذى تراه العيون لليد التى لا تراها الأنظار، ولا تدركها الأبصار؛ يد المدبر المهيمن القهار. . . .) (١).

ولعل من أسرار ذلك، ومما أراده الله أن نعلمه أن العمل قد لا يؤدى إلى النجاح وإن كان الداعية يتقن عمله ليصل إليه، إذ إن النجاح خير يسوقه الله لعباده، والنصر موهبة من الله تعالى على العمل لا نتيجة له، لأن الله تعالى وهو خالق النفوس، عرف محبتها للنصر، فوعدها به.

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢)

وإلا فهنالك من الأنبياء، والقدرة تحوطهم، ومع هذا قد يأتى أحدهم ـ يوم القيامة ـ وليس معه أحد، وفى هذا عزاء أيما عزاء لكل العاملين الذين يستبطئون النصر.

عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «**عرضت على الأمم، فجعل يمر النبى معه الرجل، والنبىُّ معه الرجلان، والنبى معه الرهط، والنبى ليس معه أحد**») (٣).

وإدراك (التوكل) ليس بالأمر السهل لأنه من مقتضيات الإيمان، والإيمان يزيد وينقص، وكذلك شُعَبُهُ تزيد بالطاعات وتنقص بالمعاصى، فالمؤمن يدرك القدر وسريانه، والقضاء وجريانه بحدهما الأدنى، ولكن التوكل بمعناه الأعلى وإدراك (كنز العجز) مرحلة من التوفيق لا يوصل لها إلا بالطاعات، وترك الهوى، واجتناب الشهوات، وقد قال الفضيل بن عياض: (من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق) (٤).

وكان الأنبياء السابقون على هذا المنهج تنال منهم (البأساء) بالشدة والفقر والمسكنة، وتضييق جهات الخير، (والضراء) بالآلام والأوجاع وضروب الخوف، وانفتاح جهات الشر، وينال منهم (الزلزال) بأنواع البلايا والرزايا،ثم مع هذا ينتظرون النصر، ويتساءلون عنه ـ دون شك أو ارتياب ـ لأنهم بذلوا من الجهد

(١) فى ظلال القرآن ٤ / ٢٣٣٠.
(٢) سورة الصف: ١٣.
(٣) حديث متفق عليه.
(٤) روضة المحبين/ ٤٧٩.

obeikandi.com

أقصاه، ومن العمل نهايته، فيأتيهم النصر إذ وصلوا إلى مرحلة العجز إلا من فضل الله وقوته.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (١).

(فبين سبحانه وتعالى: أنه أرسل رسله، والناس رجلان: رجل يقول أنا مؤمن به مطيعه. فهذا لابد أن يمتحن حتى يعلم صدقه من كذبه...).

ثم يقول شيخ الإسلام لجماعته عن اللذة التى يحصل عليها المرء عند معرفته الله بعد الامتحان والبلاء، واكتشافه الكنز الذى سماه اللذة والسرور، فيقول متحدثاً عن سجنه:

(... فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته، والجهاد فى سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات، وأُعَرِّف أكثر الناس قَدْرَ ذلك، فإنه لايُعْرَف إلا بالذوق والوجد، لكن ما من مؤمن إلا له نصيب من ذلك، ويستدل منه بالقليل على الكثير، وإن كان لا يُقدر قدرهُ الكبير...) (٢).

وقال الإمام الرازى فى تفسير الآية السابقة بما يشهد لنفس المعنى من وصول الرسل لمرحلة العجز:

(لأن الرسل عليهم السلام يكونون فى غاية الثبات والصبر وضبط النفس عند نزول البلاء، فإذا لم يبق صبر حتى ضجوا، كان ذلك هو الغاية القصوى فى الشدة، فلما بلغت بهم الشدة إلى هذه الدرجة العظيمة قيل لهم: ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾(٣)... وأنتم يا معشر المسلمين كونوا على ذلك وتحملوا الأذى والمشقة فى طلب الحق، فإن نصر الله قريب، لأنه آتٍ، وكل ما هو آتٍ قريب....) (٤).

ومن هذا كله ونظائره لابد من استنفاد الجهد، واستفراغ الطاقة حتى مرحلة العجز، وحصاد الكنز، وعلى مستوى الجماعة، وطلب النصر الدعوى، فليعلم ـ الداعية ـ أن نصر الله قريب إذا وصل الغاية.

(إنه مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة الذين لا يحنون رءوسهم

(١) سورة البقرة: ٢١٤.
(٢) فتاوى ابن تيمية ٢٨ / ٤١.
(٣) سورة البقرة: ٢١٤.
(٤) تفسير الرازى ٦ / ٢٠.

للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله، وحتى حين تبلغ المحنة ذروتهـا، فهم يتطلعون فحسب إلى ﴿ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾، لا إلى أى حل آخر ولا إلى أى نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلا من عند الله..) [١].

وليس (كنز العجز) على مستوى الجماعـة فـقـط، بـل ولَكَ ـ أيها الداعية ـ وفى كل إطار عمل أنت فيه... ففى الخطط المرحلية، وفى طلبك للنجاح دون النصر النهائى، إذا ما ادلهمت عليك الخطوب، وسدت عليك المنافذ،فاركن إلى الكنز الذى لا يضيع ولا ينفذ، **واستمع إلى قول أحد الزهاد فى دعائه:**

(اللهم أغننى بالافتقار إليك، ولا تفقرنى بالاستغناء عنك) [٢].

(وإذا عظم المطلوب، وأعوزك الرفيق الصالح، فارحل بهمتك بين الأموات، وعليك بمُعَلّم إبراهيم.. ومن الله سبحانه الاستمداد، وعليه التوكل،وإليه الاستناد،فإنه لا يخيب من توكل عليه، ولا يضيع من لاذ به،وفوض أمره إليه،وهو حسبنا ونعم الوكيل)[٣].

(١) فى ظلال القرآن ٢ / ٢١٩.
(٢) البيان والتبين للجاحظ ٣/ ٢٢٠.
(٣) مفتاح دار السعادة / ٣٢.

obeikandl.com